مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 843 – 852
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

# أوضاع المتصوفة في العهد المرابطي والموحدي
# Status of Sufis in the Almoravid and Almohad era

**إبراهيم مشراوي*** **فطيمة مطهري**
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية- جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
brahimmechraoui2@gmail.com bentalhafatima@yahoo.fr

**تاريخ الإرسال: 2019/10/10** **تاريخ القبول: 2020/11/26**

**الملخص**:
يعتبر التيار الصوفي في بلاد المغرب الإسلامي تيارا ذا سلطة روحية واسعة، حيث استطاع أن يشكل جبهة اجتماعية عريضة، وأن يكسب احتراما شعبيا كبيرا، جعل من زعمائه يتبوءون مكانة عظيمة في قلوب مريديهم وأتباعهم، الذين كانوا مستعدين لفعل كل ما قد يشير به عليهم شيوخهم، لكن كثرة الأتباع والتفافهم حول زعيمهم، عادة ما يتخوف منها أصحاب السلطة السياسية، لأنهم يرون في ذلك منافسة خطيرة تهدد وجودهم، كما كانت تهدد في الوقت نفسه ممثلي السلطة الدينية ( الفقهاء) وتضر بمصالحهم.
وتهدف هذه المقالة إلى إبراز طبيعة العلاقة القائمة بين السلطة والمتصوفة في العهدين المرابطي والموحدي، و الدور الذي لعبه الفقهاء كوسيط في رسم معالم تلك العلاقة، ورصد مواقف وأساليب تعامل السلطة مع زعماء المتصوفة، ومحاولة إعطاء صورة لما كان عليه وضع رجال التصوف والفقهاء في تلك الفترة.
**الكلمات المفتاحية**: المتصوفة؛ الفقهاء؛ السلطة؛ المرابطين؛ الموحدين.

**Abstract:**
The Sufi movement in the Islamic Maghreb is considered a movement with a wide spiritual authority, where it was able to form a broad social front, and won great public respect, made its leaders to assume a great place in the hearts of their murids and followers, who were ready to do everything that their elders may refer to them, But the large number of followers and their understanding of their leader, usually feared by the holders of political power, because they see this as a serious competition threatening their existence, as it was at the same time threatening representatives of the religious authority (jurists) and harm their interests.
This article aims to highlight the nature of the relationship between the authority and Sufis in the Almoravid and Almohad era, and the role played by the jurists as a mediator in drawing the parameters of that relationship, and to monitor the attitudes and methods of dealing with the leaders of the Sufis, and try to give a picture of what was the situation of men of Sufism and jurists in those Period.
**Key words**: Sufis; jurists; authority; Almoravids; Muwahids.

* المؤلف المرسل.

**مقدّمة:**

شهد العصر المرابطي و الموحدي نهضة فكرية نشيطة، وحركة علمية شملت العديد من الفنون والمعارف، فتعددت فيها العلوم العقلية و النقلية، وبرزت خلال هذين العصرين شخصيات أدت دورا هاما في هذا المجال، وتركت بصمات واضحة، وإنتاجا فكريا لا يزال موجودا حتى يومنا هذا، ومن التيارات التي ظهرت في تلك الفترة، نجد تيار الفقهاء الذي كان يقف في أغلب الأحيان في صف السلطة السياسية، وتيار التصوف الذي عادة ما يميل إلى الرعية ويسعى في مصالحها، وقد ظهرت العديد من الشخصيات التي اتخذت من التصوف منهجا لحياتها، وصار لها أتباع ومناصرين لآرائها، ومدافعين عن أفكارها، ومعلوم أن كثرة الأتباع وحماسة الأنصار أمر يثير حفيظة الفقهاء، ويقلق السلطة السياسية الحاكمة و يهدد كيانها، مما يدفعها إلى اتخاذ إجراءات معينة ضدها.

وعليه سوف أركز في هذه المقالة على إشكالية العلاقة بين المتصوفة والسلطة السياسية الحاكمة في العهدين المرابطي و الموحدي، وموقف الفقهاء من رجال التصوف، ودورهم في تحديد تلك العلاقة.

**1- مفهوم التصوف:**

**لغة:** جاء في معاجم اللغة تحت مادة (صوف) على عدة معان، منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، والصوفة وهو كل من ولي شيئا من عمل بيت الله الحرام[1].

ويقول القشيري: « وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب»[2]، وقيل بل نسبة إلى أحد الرجال من قبيلة أو حي من مضر يسمى صوفة، وهو الغوث بن مر الجاهلي، أحد سدنة الكعبة، والذي نذر نفسه لخدمة الكعبة وخدمة زوارها، واشتهر بالزهد والعبادة[3] والتصوف مشتق من لبس الصوف زهدا في الدنيا وزخرفها.

وينسب هذا الاشتقاق أيضا إلى أهل الصفة «لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف»[4]، فقد كانوا فقراء في أول أمرهم، وأطلق عليهم اسم أضياف الله، ثم كان منهم الغني والأمير، والمتسبب والفقير، لكنهم شكروا عليها حين وجدت، كما صبروا عليها حين فقدت[5] ولم يتغير حالهم بتغير أحوالهم.

**اصطلاحا:** أما اصطلاحا فللتصوف الكثير من التعريفات، منها قول ابن عجيبة رحمه الله: "التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة"[6].

ومنها قول صاحب كشف الظنون: « هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم»[7].

ويعرفه معروف الكرخي (ت200هـ/815م) بقوله: « التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»[8].

أما ابن خلدون فيعرفه على أنه « محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها إلى غيرها»[9].

**2- أنواع التصوف:**

**التصوف السني:** وهو تصوف عملي، يراعي أوامر الله ونواهيه، والإعراض الدنيا وزينتها والإقبال على الآخرة، مع عدم الانقطاع عن الحياة الواقعية للناس، وهذا الاتجاه الصوفي يظهر بمظهرين: « مظهر بارز تمثل في ترك مظاهر الدنيا من مال وجاه وعيشة رغدة، وباطنها مراقبة أفعال القلب الذي

هو مصدر الأفعال ومبدؤها، وغرضها النجاة من عقاب الله»[10]، فأفعالهم كلها مبنية على مراقبة الله تعالى في الظاهر والباطن، وجميع التكاليف التي يتعبدون بها تعود إلى نوعين، أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة وهي العادات والعبادات والمتناولات، وأعمال باطنة كالإيمان وما يخالط القلب من صفات مذمومة أو ممدوحة[11] فإذا صلح الباطن صلح الظاهر.

وقد عرف الأندلس في بدايات الفتح دخول بعض التابعين مع حملة موسى بن نصير، الذين عملوا على زرع بذور اتجاه الزهد والورع في تلك البلاد، ويعد القرن السادس الهجري، والربع الأول من القرن السابع الهجري، العصر الذهبي له[12]، خاصة وأن كل الظروف كانت مناسبة لازدهاره واكتساحه الساحة الأندلسية.

ويمكن اعتبار القرن الثالث هو بداية بروز علم التصوف بمعناه الدقيق، حيث أصبح الزهاد يعرفون باسم الصوفية[13]، وصاروا يتكلمون في أمور لم تكن معروفة من قبل.

**التصوف الفلسفي:** السمة الغالبة على متصوفة هذا الاتجاه ، التزامهم بتعاليم القرآن والسنة، والنزوع إلى كشف حجاب الحس بهدف إدراك الحقائق الإلهية واكتساب العلوم اللدنية، إضافة إلى التركيز على تصفية النفس وتجريدها من علائق البدن، وكل هذا لا يتم إلا باستخدام المجاهدات والرياضات، كالقيام والصيام، والخلوة والذكر[14]، كما ركز جمهور من المتصوفة الأندلسيون على العناية بعلم كشف الغيب، وأقاموا لذلك علما خاصا، ووضعوا له اصطلاحات تدور بينهم، ينكرها عليهم من لم يعرف معانيها « فأصبح علم التصوف عندهم يختص في البحث عن طريق العلوم المصطلح عليها المؤدية إلى كشف أسرار الملكوت وحكمته، وإظهار حقائق الموجودات عن طريق العقل، فإذا عجزوا أو طلبوا بالبرهنة عليها لجأوا إلى الوجدان والمجاهدة النفسية»[15]، وقد مثل هذا الاتجاه الصوفي الفلسفي في العهد المرابطي، جماعة منهم أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي (ت546ه) وابن برجان (ت536ه)16 ومن تبعهم من مريدين.

**3- انتشار التصوف خلال عصري المرابطين والموحدين:**

أرجع ابن خلدون ظهور التصوف إلى الحالة التي تسود المجتمعات الإسلامية، من الإقبال على الدنيا والانغماس في ملذاتها، مما أوجب بروز تيار معاكس لهذه الحالة تمثل في العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله والإعراض عن الدنيا وزخرفها والزهد فيما يقبل عليه الناس من مال وجاه ولذة، والانفراد عن الخلق في خلوة للعبادة[17]، وعرف أصحاب هذا الاتجاه بالصوفية أو المتصوفة.

رغم سياسية التشدد المذهبي والرقابة الفكرية التي طبعت الحياة الثقافية في دولة المرابطين، فإن ذلك لم يمنع من ظهور عدد من الأشخاص الذين اشتهروا بحملهم للفكر التصوفي الذي تسرب من المشرق الاسلامي، حيث يرجع انتشار التصوف خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين في العهد المرابطي إلى دخول كتب الغزالي، خاصة كتاب الإحياء الذي لقي رواجا لدى العديد من العلماء في هذا العصر ، لما يحمله من أبعاد صوفية، وتأويلات للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما تعد رحلة المغاربة نحو المشرق عاملا مهما في انتقال التصوف إلى الغرب الإسلامي، حيث كانوا يقصدونه إما للحج، أو لطلب العلم، أو التجارة، وخلال تلك الرحلة كانوا يلتقون بكبار المتصوفة المشارقة، فيتأثرون بطريقتهم الداعية إلى الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، والبعد عن الخوض في أمور السياسة، ورفض الوظائف الدنيوية التي يدعون إليها من طرف الحكام، فكان ذلك يبعث في نفوس الناس عامة والمغاربة خاصة

الهيبة والإجلال والتوقير لهؤلاء المتصوفة، فكانوا يحرصون على الجلوس في حلقهم لتلقي علومهم والأخذ عنهم، ثم عند عودتهم إلى بلادهم يقومون بنشر طريقتهم وعلومهم والسير على خطاهم.

وقد أقبل رجال التصوف في الأندلس على قراءة كتب الغزالي ودراستها، مع أن ثقافتهم الروحية والفلسفية لم تقف عند الغزالي وكتبه، بل تأثرت أيضا بالتراث الفلسفي اليوناني[18]، الذي ترجم في المشرق ثم انتقل إلى الأندلس، ومع أنه لم تظهر في تصوفهم نزعة فلسفية واضحة، فقد اتجهوا بالتصوف وجهة جديدة ذات طابع إشراقي متميز في أساليبه ومصطلحاته ومعانيه، كما يظهر في مؤلفات ابن برجان[19]، وابن العريف[20]، وابن قسي، وقد تكتل هؤلاء المتصوفة في هذا العهد، متخذين من بعض المدن مراكز لهم، وتجمع حولهم الأتباع والمريدون، مما جعل السلطة المرابطية تنظر بعين الشك والريبة إليهم وإلى كل ما يصدر عنهم، وعينها في ذلك هم الفقهاء الذين ما فتئوا يستغلون الفرص للنيل من المتصوفة والتنكيل بهم، ووسيلتهم في ذلك هي السلطان، مستغلين في ذلك نفوذهم الديني وحماس العامة وتعاطفهم معهم.

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار التصوف في أواخر دولة المرابطين، تفشي الكثير من الآفات الاجتماعية، مثل اللصوصية وشرب الخمر والزنا وغيرها، وقد أشار صاحب المعجب إلى دخول كثير من العادات والتقاليد الغريبة عن الإسلام، في المجتمع المرابطي، وتخلي المسلمين تدريجيا عن كثير من أمور الدين، والتكاسل عن أداء الفرائض والعبادات، مع الإقبال على الملذات والترف والنعيم، وشيوع مجالس الخمر والغناء وكثرة أماكن اللهو، يقول المراكشي: «واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله.... وظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد..... واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور»[21]، ونتج عن ذلك تفاوت في طبقات المجتمع المرابطي، وشعور أفراد المجتمع بفارق كبير بينهم وبين حكامهم، خاصة عندما أصبح الحكم محصورا في فئة معينة، مما دفع بالكثير من الناس إلى تفضيل حياة العزلة والابتعاد عن حياة اللهو والترف، وفضلوا الالتفاف حول زعماء المتصوفة ونهج طريقتهم.

أما في العهد الموحدي فقد ازداد انتشار التصوف بشكل أكبر مما كان عليه في العهد المرابطي، وذلك بسبب آراء ابن تومرت العقدية التي جاء بها وقررها في مؤلفاته، حيث دعا فيها إلى تأويل المتشابه من الكتاب والسنة، وأخذ الناس بعقيدة الأشاعرة، وتعميمها في سائر بلاد المغرب الإسلامي، مما نتج عنه « ظهور تيار صوفي يركز على المجاهدات كالصيام والقيام، والإخلاص والتواضع »[22]، كما أن انتشار كتب الغزالي والتوسع في دراسة مؤلفات الأشاعرة في العهد الموحدي، قد أعطى نوعا من الحرية لبروز المشتغلين بعلم الفلسفة التي كانت محظورة في العهد المرابطي، خاصة في خلافة يوسف بن عبد المومن (558-580ه) الذي كان يجمع كتبها ويقرب أصحابها[23] مما نتج عنه تطور التصوف ذو الطابع الفلسفي.

**4- علاقة المتصوفة ببعضهم:**

انتشرت البؤر الصوفية في جل المدن الأندلسية في القرن السادس الهجري، من شرق الأندلس إلى غربها في مرسية[24] وبلسية[25] وجزيرة شقر، ومالقة[26] وجيان[27] وغرناطة[28] والمرية التي أصبحت بمرور الوقت بؤرة من بؤر التصوف في شرق الأندلس[29] وكانت من أشهر وأهم مدارس الصوفية في الأندلس[30] يرأسها الصوفي الكبير أبو العباس بن العريف (536ه).

كان ابن العريف الذي لمع اسمه في أوساط الأندلسيين، يوجه برسائله إلى مريده في أنحاء الأندلس عبر إرسالها إلى أصحابه من شيوخ المريدين في تلك المناطق، أمثال أبي الحسن بن غالب[31] الذي كان يقوم بتوزيعها على المريدين[32] وكان يخاطبه فيها "بالأخ الودود" و "الصادق النظر، الرائق العين والأثر[33] و"الصديق الوفي والأخ الصفي"[34] مما يدل على متانة الصداقة بينهما[35].

وعن متصوفة الغرب الأندلسي فقد كان شيخهم أبا محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف، الذي لازم ابن برجان، وابن العريف وأخذ عنهما، كما كان الغرب الأندلسي يضم العديد من زعماء المريدين، نذكر منهم على سبيل المثال، أبو الوليد بن المنذر، وأبو عبد الله محمد بن سالم، وأبو القاسم أحمد بن قسي، الذي رحل إلى ألميرية ودرس على أشياخها، وقد كان هؤلاء الزعماء الصوفية المذكورين من أثرياء المولدين، قد جمعتهم الصداقة وكانوا على اتصال بابن العريف شيخ الصوفية في شرق الأندلس.

أما شيخ صوفية الأندلس وإمامهم، فقد كان ابن برجان، الذي اتخذ من إشبيلية مقرا له، وكان يتولى حمل رسائله إلى مريديه، أبا محمد الإشبيلي المعروف بابن الخراط، المقرب من ابن برجان، كما نجد أن أبا الفضل النحوي ( ت513ه) الذي كان من الذين انتصروا للإمام الغزالي[36] وعارضوا إحراق كتاب الإحياء، قد نزل بقلعة بني حماد واستقر بها، وكان من تلامذته من تأثر بأفكار الغزالي واهتم بكتبه، وكان يقول وددت أني لم أنظر في عمري سواها[37] مسجلا بذلك موقفه من تلك القضية.

ونقل عن الشيخ أبي عبد الله الدقاق (ت أواخر القرن السادس) وهو من كبار مشائخ الصوفية، بأنه كان « يتكلم بأشياء تنكر عليه، فذكر ذاك بعض أصحابه لابن العريف وأبي الحكم بن برجان فقالا: لا تنكروا عليه شيئا من أحواله»[38] ما فيه بيان لعلاقة الود والاحترام التي كانت تربط المتصوفة ببعضهم البعض.

**5- علاقة السلطة بالمتصوفة ودور الفقهاء فيها:**

**علاقة الود والاحترام:** عاش في ظل الدولتين المرابطية و الموحدية الكثير من الصلحاء الذين اتخذوا التصوف منهجا لحياتهم، وتجمع حولهم الأتباع والمريدون ينهلون من علمهم ومعرفتهم، وظهر في تلك الفترة أقطاب التصوف في المغرب الإسلامي، وصاروا أعلاما يقتدي بهم الأتباع والمريدون، ويتخذون من تعاليمهم مبادئ لهم، وأصبح لهم تأثير في الحياة السياسية، فضلا عن الحياة الروحية.

وإلى جانب تلك المكانة العالية لدى طبقات الشعب المختلفة، فإن رجال التصوف قد حضوا بشيء من الاحترام والتقدير عند حكام الدولتين المرابطية و الموحدية، إذ نجد الكثير منهم يحرصون على التقرب منهم لنيل رضاهم وتقربا للجماهير الملتفة حولهم، فمن ذلك ما ذكره التادلي أن والي تلمسان المرابطي مزدلي قصد الشيخ المتصوف أبا محمد بن عبد السلام التونسي في أرضه التي يعمل بها، فلما سأله عن سبب قدومه، قال الأمير جئت لأتبرك بك وآكل من طعامك[39] ما يدل على علو شأن الصلحاء لدى أمراء المرابطين.

وذكر صاحب التشوف أن أبا الحسن بن حرزهم حين قدم مراكش استدعاه أحد أمراء المرابطين للأخذ عنه، فلما وصل عنده أجلسه على سريره وجلس الأمير تحته[40] إكراما له.

أما في عهد الموحدين فإنهم « أحسنوا التعامل مع هذا التيار الأكثر شعبية بأن استثمروا أفكاره فربطوا حركتهم السياسية بأبي حامد الغزالي مدعين تتلمذ ابن تومرت عليه »[41] فقد كان السادة من بني عبد المومن يجلون رجال التصوف ويقربونهم، ويتبركون بصحبتهم في الحروب، فقد نقل عن المنصور الموحدي (ت595ه) أنه اصطحب معه في وقعة الأرك سنة591ه الكثير من الصلحاء[42] ورجال العلم

بغرض التبرك بهم، والدعاء للمسلمين بالنصر على عدوهم، وجرت عادته بذلك حيث كان عند عزمه ملاقاة عدوه يكتب « قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء، ويشير إلى العسكر»[43].

وعندما مرض المنصور استدعى أحد رجال التصوف وهو أبو العباس المعروف بالسبتي لمعالجته والدعاء له، وبهذا حظي المتصوفة بمكانة مميزة ورعاية خاصة من طرف السلطة الموحدية، يقول المراكشي: « وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة»[44].

**علاقة النفور والعداوة:** إن تلك المكانة التي تمتع بها رجال التصوف والتفاف الناس حولهم، وتكريمهم لهم، أثارت حفيظة الفقهاء، ودفعتهم إلى السعي بهم لدى ولاة الأمر، انطلاقا من الحقد والكراهية التي كان الفقهاء يكنونها للمتصوفة بسبب الانتقادات اللاذعة التي كانوا يوجهونها لهم خاصة تلك التي جاءت في كتاب الإحياء للغزالي، من ذلك نعته للفقهاء « بأنهم اقتصروا على علم الفتاوى في الخصومات والحكومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق في مصالح العباد... وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم ينتقدوا الجوارح ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام»[45]، وواصل الغزالي انتقاده للفقهاء الذين كانوا يتقربون من الحكام ويوظفون الدين خدمة لأغراض دنيوية لنيل رضاهم والتقرب منهم، طمعا في كسب الدنيا وتحقيق الجاه والمنزلة عند أهلها[46]، مما أزعج الفقهاء ولم يتحملوا تلك الانتقادات، وبذلك ساد جو مشحون بغضب الفقهاء وممزوج بدعم من السلطة، لمحاربة كل تغيير للواقع، سواء كانت هذه المحاولات عبارة عن حركات فكرية جديدة، أو دعوة سياسية معارضة للسلطة القائمة.

وفي العهد الموحدي نجد الكثير من القضايا التي خلقت جوا من العداوة والصراع بين المتصوفة والفقهاء، الذين قاموا بتحذير السلطة الموحدية من رجال التصوف وخطورة ما يبثونه من أفكار، وازدياد عدد أتباعهم، فاضطر الموحدون إلى الضغط على رجال التصوف الذين كان يبدر منهم ما يدعو للحذر، وفي هذا الصدد نذكر أن أبا علي المسيلي (ت نحو 580ه) عندما كان ببجاية كان الناس يلجأون إليهم في فتواهم وتقاضيهم، مستغنين عن فقهاء وقضاة الموحدين وأصبح يهدد مكانتهم[47] فتكلم قاضي بجاية مع والي المدينة « في أن يوجه إلى الفقيه أبي علي رحمه الله من يحدثه في أن يشتغل بشأنه ويقتصر على خاص أمره »[48]، لأنهم كانوا يرون ذلك تدخلا في أمور السياسة.

وعليه فإننا نجد أن موقف السلطتين المرابطية و الموحدية من المتصوفة قد تغير بناءا على تقارير الفقهاء، وتطور شيئا فشيئا من الاستنكار إلى الإدانة، ليأخذ مجرى مغايرا لما كان عليه الأمر في السابق، حيث لم يسمح فقهاء الدولة المرابطية لأي حركة مهما كانت طبيعتها، مزاحمتها في الساحة السياسية والاجتماعية، وذلك خوفا على مصالحها ونفوذها، لتقف مع السلطة موقفا واحدا في مواجهة المتصوفة، ففي هذا العهد اتخذت العلاقة شكلا آخر تميز بالتشدد والحزم.

ورغم أن ما يميز أتباع هذا التيار الصوفي هو الابتعاد قدر الإمكان عن الدخول في مصادمات مع السلطة المرابطية، إلا أن هذه الأخيرة ظلت تتوجس منه المخاوف وتستشعر الخطر الذي يمكن أن تشكله هذه الفئة من المتصوفة، وتزخر كتب التراجم الأندلسية بأسماء الكثير من الزهاد والعباد، الذين

عرفوا في الوسط المغاربي، بتقواهم وورعهم، وميلهم لحياة الزهد والتقشف، كما أنها تشير في غالبها إلى صور النفور والتباعد التي طبعت علاقة السلطة بالمتصوفة، وعليه فإنه يمكن رصد أساليب معاملة السلطة للمتصوفة في النقاط التالية:

**6- أساليب تعامل السلطتين المرابطية والموحدية مع المتصوفة:**

**التضييق والمراقبة:** بعد أن ظهرت هذه الحركة الدينية ذات الطابع الصوفي، أسفرت عن قيام طائفة المريدين بغرب الأندلس، وكان إمام هذه المدرسة كما سبق الإشارة إليه، هو العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، المعروف بابن العريف، الذي غلب عليه الزهد والورع ومال إلى طرق الصوفية، والتف حوله الأتباع والطلبة وكثروا حتى صار إمام نحلتهم، وألف عدة مؤلفات في التصوف منها "محاسن المجالس" و"مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة" ومطالع الأنوار ومنابع الأسرار" وكانت بينه وبين القاضي عياض السبتي مراسلات ومجادلات فقهية[49] والظاهر أنه أثار بكتاباته وتعاليمه سخط الفقهاء المرابطين ، حتى بعث ذلك الشكوك والمخاوف في نفوسهم، وصاروا يرون فيه منافسا خطيرا لهم فقرروا عند أمير المسلمين علي بن يوسف ( 50هـ 537هـ- 1106م-1142م) تقبيح كلامه، وأن التصوف بدعة حتى ادخلوا الريبة في قلبه من تحركاتهم.

وفي نفس المنحى حاول فقهاء المرابطين ضرب الاتجاه الصوفي بتوجيه التهمة إلى كتاب الإحياء نفسه، بأنه يحتوي على مسائل منافية للسنة، واقتنعت السلطة المرابطية بصحة هذا الادعاء فأمرت بإحراق الكتاب في كل من قرطبة، ومراكش، وتشددت في متابعة كل من يقرأه أو يقوم بنسخه ، على اعتبار أنه يساهم في ترويج الفكر الصوفي، وقد أشار إلى ذلك المراكشي بقوله: «ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي – رحمه الله- المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»[50]، حتى كادت أن تفقد كتب الغزالي من المغرب.

كما تعرضت رسائل ابن العريف التي كان يرسل بها إلى مريديه ويتلقاها منهم للمراقبة، حتى اشتكى من انقطاع الأخبار عنه، وكتب بذلك إلى أحد مريديه: « وكنت في عام تسعة وعشرين، لم يصل إلينا في وجهة المشرق مخبور يأنس ولا مخبور بطيبة نفس»[51]، وهذا بسبب ما كان يعانيه من تشديد في الرقابة على تحركاته.

وفي العهد الموحدي لما استوطن الولي الصالح أبو مدين شعيب (ت594ه) بجاية كثرت الوفود عليه من كل الأنحاء، وازدادت حاله رفعة مع مرور الأيام، وشى به عند الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بعض الفقهاء، الذين سماهم ابن مريم في كتابه البستان بعلماء الظاهر « وقال إنه يخاف منه على دولتكم فإن له شبها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد»[52]، مما أثار شكوك الخليفة يعقوب، وأمر باستدعائه إليه لاختباره والوقوف على حقيقة أمره.

**السجن والتحقيق:** ومن المتصوفة الذين خضعوا للتحقيق من طرف السلطة المرابطية، نذكر ابن برجان، الذي أورد ابن الأبار خبر اعتقاله وإرساله إلى العدوة المغربية[53]، فلما وصل إلى حضرة مراكش « سئل عن مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمل من التأويل، فأنفصل عما ألزمه من النقد»[54]، ويروي ابن الزيات بأن أبا الحكم بن برجان، دعا على السلطان المرابطي بالموت بعده، فبلغه ذلك فأمر أن تطرح جثة ابن برجان على المزبلة، وأن لا يصلى عليه، لكن لما سمع أبو الحسن بن حرزهم بذلك نادى في الناس ودعاهم للصلاة على الشيخ ابن برجان[55]، وصلى عليه كثير من الناس وشهدوا جنازته.

ومنهم أيضا أبو العباس أحمد بن العريف، الذي لقي معارضة من الفقهاء المالكية، وكان على رأس معارضيه قاضي المرية ابن الأسود[56] الذي يبدو أنه أوغر صدر الأمير ضده، وخوفه منه غاية التخويف، فأمر بإرساله إلى مراكش مع بعض أصحابه للتحقيق معه، فلما ركب القارب المتجه إلى سبتة، أشار القاضي على عامل المرية بتكبيله، وذلك إمعانا في إذلاله، ولما وصل إلى سبتة جاءه رسول السلطان بالأمان وبرئه مما نسب إليه، لكن ذلك أغاض القاضي ابن الأسود فاحتال في قتله ودس له السم، ومات مقتولا في مراكش حيث «توفي بها ليلة الجمعة، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة، واحتفل الناس لجنازته، وندم السلطان على ما كان منه في جانبه»[57]، وحادثة الاغتيال هذه تنم عن ما كان يعانيه المتصوفة من بعض الفقهاء الموالين للسلطة.

وفي العهد الموحدي نجد أن الخليفة عبد المومن بن علي يمتحن الشيخ أبي يعزى( ت572ه) بالحبس في مراكش داخل صومعة الجامع أياما سنة 541ه قبل أن يخلي سبيله، لكن اعتقاد الناس فيه، ودوره الاجتماعي والتفاف الناس حوله على امتداد أرض المغرب والأندلس عبر مريده وتلامذته، جعل الفقهاء يتذمرون من تلك المكانة التي حازها، فصاروا يلعبون دور المحرض ويختلقون الحجج ليوغروا صدر الخليفة ضده ، فمن ذلك إنكارهم عليه لمس صدور النساء والنظر إليهن، فرد عليهم الشيخ أبو يعزى بأنه يفعل ذلك لأجل العلاج مثلما يفعل ذلك بقية الأطباء مع ذوي العاهات[58] ولما رأوا كثرة الجماهير الملتفة حوله، صاروا يتخوفون على مكانتهم لدى العامة والسلطان معا، اتهموه بالتمرد على السلطة، وأشاروا على الخليفة بأن يمتحن الشيخ أبا يعزى في ولائه له، وحذروه من كثرة الجموع التي تتبع الشيخ وقالوا له: « هذه الجموع يخشى على الدولة منها»[59]، مما دعى عبد المومن إلى الخروج بمحلته إليه حتى صار قريبا منه فأرسل يستدعيه ليستجلي أمره[60] حتى تأكد أنه كان يدعو بالسمع والطاعة لأولي الأمر.

**خاتمة:**

بدأ التصوف في الأندلس كحركة زهدية في بادئ الأمر، ليتطور مع مرور الوقت إلى حركة صوفية ذات اتجاهين سني وفلسفي، لها روادها ومدارسها، وكان لها دور بارز في أحداث المجتمع المغاربي، جعل السلطتين المرابطية والموحدية تتوخى الحذر منها.

وقد شهدت العلاقة بين السلطة السياسية المرابطية ممثلة في الأمراء، والدينية ممثلة في الفقهاء من جهة، وفئة المتصوفة من جهة أخرى تأزما حادا، أما في العهد الموحدي فبالرغم أن العلاقة بينهما عرفت انفراجا، إلا أنها بدت في أغلبها علاقة ترقب وحذر وشك وريبة، دفعت بالسلطتين المرابطية والموحدية إلى اتخاذ عدة إجراءات احتياطية، تنوعت من التضييق على زعماء الصوفية، ومراقبة تحركاتهم، إلى التحقيق معهم والسجن، وبلغت في بعض الأحيان حد الاغتيال، وهي إجراءات تؤكد كلها على مدى تخوف الفقهاء المدعومين من طرف السلطة، من التيار الصوفي الذي زاد انتشاره في العهد الموحدي، وما كان يسببه لهم وللسلطة السياسية من أرق وخوف على مصالحهم، ونخلص إلى أن الصراع الذي كان قائما في تلك الفترة بين السلطة الحاكمة والمتصوفة، هو في حقيقة أمره صراع بين الفقهاء والمتصوفة الذين كانوا رافضين للأوضاع السائدة في مجتمعهم، وكانوا يعملون على إصلاحها، فنالوا بذلك رضا العامة وتأييدهم، وهو ما جعل الفقهاء يتخوفون على مكانتهم ويحرضون السلطة ضدهم.

**الهوامش:**

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج: 4، تح: عبد الله علي الكبير، وآخرون. دار المعارف: القاهرة1987، مج:27، ص، ص: 25،28.

[2] أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف. دار الكتاب العربي: بيروت1983. ص279.

[3] الجابري علي حسين، دروس في الفكر الفلسفي الاسلامي، دار الفرقد للطباعة والنشر، د.ب.ن، ط:2010،1م، ص261.

[4] أبو العباس أحمد زروق الفاسي البرنسي، قواعد التصوف، تق وتح: عبد المجيد خيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:2، 2005م ، ص24.

[5] أحمد الفاسي زروق، المصدر نفسه، ص24.

[6] الحسني احمد ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف. تحقيق، عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ص01.

[7] خليفة حاجي، كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص125.

[8] أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي: بيروت1983، ص149.

[9] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح:سهيل زكار. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت: لبنان2001م ، ص611.

[10] جدو فاطمة الزهراء السلطة والمتصوفة في الأندلس عهدي المرابطين والموحدين رسالة ماجستير 2009/2008م قسنطينة ,كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، ص53.

[11] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين12و13 الميلاديين. عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،2004م ، ص38.

[12] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر، المرجع نفسه، ص 89.

[13] عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تح: محمد مطيع الحافظ، بيروت: دار الفكر المعاصر1996م، ص27.

[14] الطاهر بونابي. الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرن 8و9ه (أطروحة دكتوراه). قسم التاريخ: جامعة الجزائر، (2008/2009م). ص116،

[15] أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الاسلامي، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع1979م، ط:3، ص95.

[16] جدو فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص13.

[17] عبد الرحمن ابن خلدون، شفاء السائل، المصدر السابق، ص50.

[18] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر، المرجع السابق، ص43.

[19] ابن الزيات التادلي، تح: أحمد التوفيق، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997م، ط:2، ص70.

[20] أبو القاسم خلف ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، القسم الأول، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م، ص101.

[21] عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، القاهرة: 1963م، ص241.

[22] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر، المرجع السابق، ص88.

[23] عصمت عبد الطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين ، دار الغرب الاسلامي: بيروت1991م، ص44.

[24] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس. مكتبة لبنان: 1984م، ط:2، ص539.

[25] عبد المنعم الحميري، المصدر نفسه، ص97.

[26] المصدر نفسه، ص517.

[27] المصدر نفسه ، ص183.

[28] المصدر نفسه، ص45.

[29] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، مؤسسة الشباب الجامعية: الاسكندرية1984م، ص183.

[30] عصمت عبد الطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين. دار الغرب الإسلامي: بيروت 1988م، ط:1، ص 51.

[31] ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة سفر5، قسم1، ، رقم الترجمة: 415. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1973م. ط: 1، ص208.
[32] عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس نهاية المرابطين، المرجع السابق، ص:52.
[33] أبو العباس أحمد بن العريف، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، ، تح: عصمت عبد اللطيف دندش. دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1993م, ط: 1، ص:126.
[34] عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، المرجع السابق، ص: 52.
[35] يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي:القاهرة 1958م، ط: 2، ص:203.
[36] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف ط:2: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء1997، ص:96.
[37] ابن الزيات التادلي، المصدرنفسه، ص:96.
[38] ابن الزيات ،المصدرنفسه، ص:156.
[39] ابن الزيات ، المصدر نفسه، ص:111.
[40] ابن الزيات ، المصدر نفسه، ص:169.
[41] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر، المرجع السابق، ص:201.
[42] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص:359.
[43] المصدر نفسه، ص:362.
[44] المصدر نفسه، ص354.
[45] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج:3، بيروت: دار الكتب العلمية1986م، ط: 1، ص:381.
[46] المصدر نفسه، ص:73.
[47] أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابع ببجاية، تح: عادل نويهض، بيروت: دار الآفاق الجديدة1979م، ط:2، ص:35.
[48] المصدر نفسه، ص: 35.
[49] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي: القاهرة 1990م. ط: 2.ص:465.
[50] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص237.
[51] ابن العريف، المصدر السابق، ص:127.
[52] ابن مريم التلمساني، البستان،في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر: ابن أبي شنب، الجزائر: المطبعة الثعالبية1908م، ص:113.
[53] أبو بكر القضاعي ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ط:1، دار الكتاب المصري القاهرة1989، ص:139.
[54] محمد عبدالله عنان، المرجع السابق، ص:465.
[55] ابن الزيات، المصدر السابق، ص:184.
[56] ابن بشكوال، المصدر السابق، ص:553.
[57] أحمد التادلي الصومعي. (1996م). المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة ص:215.
[58] أحمد التادلي الصومعي، المصدر نفسه، ص:215.
[59] المصدر نفسه، ص:215.
[60] المصدر نفسه، ص:215.